في طريق "الياذة" جزائرية

ارض الملاحم

بقلم بلقاسم القماري

— الى الاستاذ مارون عبود —

التاريخ قدر مشترك يحتفظ بجميع الاحداث والتطورات الانسانية منذ فجر الحياة ، ويسجل جميع الخصائص التي ميزت هذه الحياة ، وعدلت سلوكها بالنظر الى جذورها النامية الخاضعة لتأثير النشوء والارتقاء . بيد ان تلك الاحداث والتطورات ،او بتعبير علمي المادة الخام التي يتألف منها التاريخ البشري ، لها مميزات اعتبارية تجعل الاجزاء المؤلفة لتلك الماهية الكلية ذات مقاييس مختلفة باعتبار الزمان والمكان والطبائع والتقاليد .. ومن هذه النظرية اصبح تاريخ كل امة متميزاً عما عداه بألوان وخصائص من حيث النظر الى تلك الاجزاء المكونة للحقيقة الكلية المشار اليها . فتاريخ الامة اليونانية القديم مثلاً ، ذو صبغة بيئية حين ينضاف الى تاريخ الامة العربية في جاهليتها . وهذا له ذاتية خاصة لاتتوفر لسواه من حيث اضافته الى تاريخ الامة الاسلامية بعدُ .. ثم ان الثورات الشعبية العنيفة والاحداث الاجتماعية العظمى ، نتيجة لما ينطوي عليه روح الامة من سمو ونضج . وهي ابرز المعالم والالوان اذا قيست بنوع التفكير ومظهر الحياة .. ومن ثمة امكننا ان نقول : ان الحادث العظيم هو البرهان القوي على ما يضطرب في كيان الامة من مطالب وغايات انسانية ، تسعى جهدها لتحقيقها . وهو الذي يعطينا كمية تلك المطالب والغايات ووجوه الاهمية فيها .

ولعل المتتبع لحلقات التاريخ بعناية واخلاص يظفر بسلسلة ملتحمة الاجزاء من الثورات الكبرى كانت جميعها مصدر الهام للمفكرين نضجت في ظله القرائح والاقلام فخلّدت للأجيال الطالعة تاريخاً من البطولات حافلاً باناشيد العظمة الثائرة في اندفاع وقوة .. فلقد كانت حرب طراودة باعثة لهوميروس على خلق الألياذة ، وكان هوميروس ذاته توطئة لظهور شخصية عبقرية خالدة هي شخصية سقراط العظيم . وكانت الحروب العربية في الجاهلية الاولى موحية بأنشاء ملحمة عنترة المشهورة التي تعتبر اول الياذة عربية وعاها التاريخ . بل كان ذلك الصراع العنيف وتلك الحروب الطاحنة ، ارهاصات للنبوة التي ما لبثت ان اصبحت نقطة تحول في تاريخ الانسان .. ومثل ذلك ينطبق تماماً على شاهنامة الفردوسي التي سجلت مصارع الفرس ومحيطهم .. ثم طلع العصر الحديث . فكانت اليقظة العربية وكان الاندفاع التحريري ، وكان الشعور بالقومية ينمو في ظلال الحركات المختلفه ، وكانت نكبة فلسطين الشهيدة ... وهذه جميعاً حملت الشعراء العرب في مختلف الاقطار على ان يطلوا من زوايا حاضرهم على ادب الملحمة ، الذي تحدثت عنه (الآداب) ضمن ما تطرقه من مواضيع حيوية . والذي يكاد يخلو منه الادب العربي على مرونته واتساع آفاقه .

وبعد . فان هذه اشارات خاطفة او عرض سريع ، يهمنا من ورائه إثارة سؤال وهو : أيكون التاريخ الجزائري قديماً وحديثاً خلواً من الثورات أو الحروب العنيفة الخارقة التي توفرت

اقصدوا

مكتبة الامل

لصاحبها توفيق محمود حلمي

بغداد — شارع المتنبي

تجدون فيها أنفس الكتب العلمية والادبية والاجتماعية والثقافية والقانونية . وجميع القواميس المختلفة والمصاحف المختلفة وفيها أهم مراجع الكتب القديمة ، وجميع لوازم القرطاسية على اختلاف انواعها وانواع المجلات العربية والانكليزية وفيها بعض منشورات دار العلم للملايين

فيها جميع شرائط الملحمة وخصائصها ؟ وإذا كان الجواب إيجابيا – وهو كذلك لا محالة – فما هي البواعث الاولى التي جعلت شعراء الجزائر يهملون هذا الجانب العظيم من تاريخهم القومي ؟ هذا هو المشكل الذي نثيره . وهو الذي نحاول الاجابة عنه بشيء من السرعة .. تاركين الاستقصاء والتأني الى من يهمه البحث في الموضوع ..

ويمكننا تفريع الجواب الى قضيتين : قضية تاريخنا وخصائصه الخالدة ، وقضية النهضة الشعرية وآثارها .

فإن تاريخنا على غموضه [1] حتى الآن ، كانت جميع فتراته حافلة بالحوادث الجسام مفعمة بألوان الصراع والبطولة. ومن ثمة نستطيع ان نقول : ان ارض الجزائر ارض ملاحم نتيجة لمكانتها الجغرافية ، ومشاركتها الفعالة في تثبيت اسس الحضارة الانسانية منذ العصور الاولى ، وقلما يوجد شبر من ارضها لم تسقه الأقدار دماً ، ولم يكن مسرحاً لحادثة تاريخية عظمى فهي من هذه الناحية غنية بمواد الملحمة . وقد نبأنا الزمان بأنها من أضخم الامم حضارة لو انصفها التاريخ ، وأقواها على العدو شكيمة في ميدان الحروب . فكيف اهملت معالم العظمة في ذلك التاريخ والاستعمار بالمرصاد يتلمس الثغرات للطعن في تراثنا ومقوماتنا التي هي رأس مالنا من مجد العروبة ؟ إن ماضي الجزائر مشحون بالانقلابات الخطيرة. ومن اعلقها بالأذهان (حادثة الكاهنة) و (مقتل عقبة) و (نكبة الأمير) و (واقعة شهرمايي) وغير هذه وتلك من الانفعالات الشعبية التي كان لها تأثير عظيم في الاتجاهات والعقليات . وهي الزاوية الكبرى التي تطل منها الاجيال على ما للامة من اندفاع وحركة. ومن المجازفة الظاهرة عدُّ شعر الأمير عبد القادر الحربي شعر ملاحم ، فهو رغم ما فيه من انطباعات ورموز وتسلسل خال من عناصر الملحمة الأساسية .. وقد كدنا نسمي قصيدة (ذكرى ٨ مايي) للشاعر الجديد احمد معاش الباتني ملحمة جزائرية لولا اختلال بعض الشرائط الاصيلة التي يجب توافرها لتستقيم الملحمة على سوقها .

وإذا كان التاريخ الجزائري بهذه المنزلة من حيث توافر عناصر الملاحم فيه ، فمن المسؤول عن إهماله حتى اصبحت خطوطه باهتة لا ظل فيها ولا ألوان ؟ الحق ان تحرير الشق الثاني من الجواب الذي نحاوله محرج ، وليس وجه الاحراج في ذلك لما يترتب عليه من الاقرار بوجود شعراء يمثلوننا في آلامنا وآمالنا أو عدم وجودهم ، فإن هذا في الحقيقة نتيجة لحكم الامة والتاريخ والاجيال ، بل لما فيه من تحديد لدعوة عريضة طالما هتف لها شعراؤنا ، وداسوا لبلوغ اهدافها جماجم الموتى ورقاب الأحياء. ولعل هذا التحديد نفسه يستحفزهم للوثوب ، ويضيء لهم الدروب المظلمة التي يروقهم الرقص في افيائها ، ويحملهم على ترك الاجترار وحفر القبور .. وما دمت قد لمحت فلا بد ان اقول : إن شعرنا المعاصر لا يمثلنا مهما تواضع وحمل الفانوس السحري الى المغاوير ، فأبرز ألوانه المناسبة والحكاية وجر الذيول. و«الجيد» منه لا يعدو حدود المعاني المكرورة والألفاظ الجاهلية ، وإن شعراءنا بمعزل عن الامة ومقتضيات الانسانية ، وليس من تحمّل الامانة التاريخية ، ونهض برسالة الشعر على وجهها الصحيح ، وكان لأمته القابعة في الظلمة مكانَ هوميروس في اليونان ، وشعلةً لنهضة جديدة قوية تتجاوب مع الروح العربية الحديثة ، وتواكب تيارات العصر الجديد ..

تونس — **بلقاسم سعد الله القباري**
من رابطة القلم الجديد

(١) لا نريد بكلمة (غموض) في هذا الصدد ما يريده منها الاستعمار من إذابة الروح التاريخية، واحاء ذاتيتنا، بل نقصد الى ان هذا التاريخ لم تكشف – بعد – اسراره كشفاً يجعلنا نقف على معالمه المضيئة ، وندرس خصائصه الخالدة في جميع العصور .

« وكلاء الآداب »

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات
العراق : وكالة فرج الله للمطبوعات : محمود حلمي
البحرين : المكتبة الوطنية لصاحبها ابراهيم محمد عبيد
الكويت : مكتبة الطلبة لصاحبها عبد الرحمن الحرجي
تونس : وكيل شركة فرج الله المطبوعات: الهادي ابن عبدالغني ، نهج الكتبية رقم ١٠
طنجه : مكتبة الصاحب . لصاحبها محمد العمري
ليبيا : المكتبة الوطنية – بنغازي
مصر : دار الكشاف ٣٧ شارع عبدالعزيز بالقاهرة
الخرطوم : السيد حلمي القباني
باريس : المكتبة الشرقية
15 Rue Monsieur - le - Prince — Paris